شعر العلماء

للأستاذ محمد أحمد برانق

العلماء يحصلون علمهم من الواقع الملموس أولا ، حتى إذا اتسع الأفق أمامهم خرجوا عن دائرة المحسوس ، وساروا مع العقل حيث يسير ، فهم مقيدون بأسباب ومسببات ، و بمقدمات ونتائج ، وبتفكير عميق يخرجون منه إلى مسائل يقررونها أو قواعد يقيسون عليها ، أو غير ذلك

والشعراء لهم ملكة ذهنية خاصة ، قوامها الخيال الذى يطير فى جومن العاطفة والوجدان ، على أجنحة من التشبيه البليغ وأنواع من الاستعارة ، وألوان من البديع.

وثمرة العلم غير ثمرة الشعر ، فالحقيقة المجردة ثمرة العلم ، وغذاء الروح . وإخصاب العاطفة ثمرة الشعر . فغاية العالم تختلف عن غاية الشاعر ، ولكل منهما طريق غير طريق الآخر ، فالعالم يصل الى غايته بنفسه ، والشاعر يتوقف وصوله إلى غايته على غيره ممن يقرأ شعره ، ويتأثر به ، وأيا كان الأمر ، فإن لكل منهما فى تهيئة الجمهور ، وطبعه بطابع خاص ـ أثره وخطره .

وبعد ، فهل يمكن أن تجتمع الملكتان : ملكة العلم ، وملكة الشعر — لرجل واحد ، فيكون عالما معدودا بين العلماء ، وشاعرا معروفا بين الشعراء ، أى أنه يستطيع أن يغذى العقل والروح معا . ؟

لا يمكننا أن نجيب عن هذا السؤال من غير تفكير طويل ، وبحث وأناة وروية ، لأن الاستقراء ، وتتبع الحوادث ، والنظر إلى الواقع ، كل أولئك يثبت لنا أن من بين العلماء من عالج الشعر ، وكان له بصر بفنونه ، إلا أن كثيرا منهم لم ينجح ، وشعر العلماء فى جملته ، إذا نظرت إليه ، وجعلته مقياسا تقيس عليه — اختلف أمامك قوة وضعفا ، فيكون تارة أدخل فى خيال الشعر ، وطورا أقرب إلى حقائق العلم

ولأن الشعر شيء محبوب إلى النفوس ، لأنها تستطرب به إن كانت أسية محزونة ولأنه يسمعه الجبان فيحمس ، والبخيل فيجود والعاشق الولهان فيسلو ، والقلب الصلد فيرق ، والجامد فيلين ، والمضنى فيمضى مصحوبا معافى ، والثائر فيسكن طيره - لهذا كله يحبه الناس ولا سيما إذا كان جيدا عذبا ، يسير إلى القلب فى طريق سهلة مأمونة ، ولهذا أيضا يتمنى كل إنسان أن يكون شاعرا ، ويحاول كل من تهيأت له بعض أسبابه أن يتعلق بأذيال الشعراء ، ويجتهد فى أن يتسهل له أمره ، وتعنو له قوافيه ، عسى أن يتطرب نفسه ، وأن يتطرب الناس معه ، وتلك ظاهرة نلمسها اليوم فى الشداة من أبنائنا الشبان ، وهى ظاهرة محمودة فى ذاتها وسيذهب الزبد مع الأيام جفاء ، ويبقى النافع المفيد

ولم يكن هذا الميل إلى صناعة القريض ممن لم تتهيأ لهم كل أسبابه ، طبيعية كانت أو غير طبيعية — حديث العهد ، أو أثرا من آثار الحضارة ، فرغبة التزيد من كل شيء ، والتطلع الى معرفة كل ما يقع تحت الحس ، وإزجاء النفس إلى المشاركة فى كل ما تظن أنه يمكنها المشاركة فيه — هذا كله طبيعة فى الناس اقتضتها نواميس الحيـــاة .

ولو رجعتك إلى الوراء قرونا ، وأطلعتك على شيء من آراء المتقدمين ، وميلهم إلى الشعر ، لوجدت أن للأطباء شعرا ، وان للنحاة شعرا ، وأن للفقهاء شعرا ، وأن للفلاسفة شعرا ، وان لغيرهم من ذوى العلوم العقلية المختلفة شعرا كثيرا مأثورا عنهم. الا أن هؤلاء جميعا عند ما يحاولون أن يصنعوا القريض — لابد لهم من أحد أمرين . إما أن يخلعوا فى الوقت الذى يقولون فيه الشعر ، ثوب العلم ، ويلبسوا ثوبا جديدا يبعدهم عن الحقائق العلمية الجافة ، ويغمروا أنفسهم فى جو الخيال البديع ، والوجدان الحى ، فيواتيهم الشعر ولو بعض المواتاة . واما أن يظلوا على حالهم فيأتوا بالغريب المضحك الذى لا يعرف الشعر ، ولا يعرفه الشعر ، ولا ينتمى اليه بسبب غير الوزن ، فهما يقفان جنبا إلى جنب أمام على العروض والقوافى فقط ويفترقان فى غير هذا . ومثل هؤلاء ، شغفهم بالشعر يجعلهم يدسون على غير استحياء هذه الألفاظ الموزونة بين شعر الشعراء ، ويسمونها شعرا ، ويتشدقون بهـــا فى

الأندية والمجالس ، ويفخرون على أمراء القريض ، ولا يعدمون «طبعاء» من يصفق لهم اذا أنشدوا — ممن لا يملكون من الأدب فتيلا ولا قطميرا

* * *

واذا وضعنا الشعر فى موضع خاص ، ووضعنا العلوم مرتبة بحسب قربها منه ، أو بعدها عنه — كان الطب والهندسة وعلوم الفلسفة وماشاكلها أبعد العلوم منزلة عن الشعر ، وكان النحو والصرف وعلم القراءات وماشابهها فى الدرجة الوسطى وكان علم الأخبار والأنساب ورواية اللغة والشعر أدنى العلوم من الشعر منزلة ، وأشدها به صلة . فمعالجة الشعر بالنسبة الى هؤلاء أيسر من معالجته بالاضافة الى علماء النحو والتصريف ومن على شاكلتهم ، ثم ان هؤلاء أقرب الى الشعر من علماء الطب والهندسة ونحوهما .

ومع ذلك فان الشغف الشخصى ، والاستعداد الطبيعى — لهما اكبر نصيب فى تكوين شاعرية العالم ، فان هذه الشاعرية قد تطغى على الملكة العلمية طغيانا قليلا أو كثيرا بحسب درجة شغف الشاعر واستعداده ، فتؤثر فيها .

* * *

وان من بين أطبائنا ومهندسينا اليوم من لهم شغف باللغة والأدب ، جعلهم يتوفرون على خدمتها ، فأتوا بما يبقى ناطقا بفضلهم عليها ، ويسجله الادب بالشكر والثناء

وليس ذلك بدعا منهم ، فان أطباءنا المتقدمين ، كان للكثير منهم باللغة عناية خاصة ، ولهم شعر كثير ، وهو وان كنت تقع على الكثير منه متكلفا رديئا ، فانه شاهد لهم على مبلغ عنايتهم بلغتهم : فالرئيس ابن سينا ، والامام فخر الدين الرازى وأمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت ، وأبو مروان بن زهر ، وهم من أطباء الاندلس — والرئيس موسى بن ميمون ، ورشيد الدين أبو حليفة ، وهما ممن سكنا مصر — وأبو نصر الفارابى ، وأبو الحكم عبد الله بن المظفر ، وسيف الدين الآمدى ، وهم من الأطباء الذين قطنوا الشام — كانوا فوق مالهم من علو الكعب فى صناعة الطب وفى غيرها من العلوم كالفلسفة وعلوم الدين — يقولون الشعر . نعم ان بعض

ما صنعوه منه جيد — كقول الرئيس ابن سينا يصف الشيب وصفا ممزوجاً بشيء من الزهد والحكمة :

أما أصبحت عن ليل التصابى وقد أصبحت عن ليل الشباب
تنفس فى عذارك صبح شيب وعسعس ليله ، فلم التصابى
شبابك كان شيطانا مريدا فرجم من مشيبك بالشهاب

الى آخر ما قال ، وهو حين يتكلم عن الشيب ، ويسلك به هذا المسلك — ترى على بن جبله يقول :

جلال مشيب نزل وأنس شباب رحل
طوى صاحب صاحبا كذاك اختلاف الدول
أعا ذ لتى أقصرى كفاك المشيب العذل
بدا بدلا بالشبا ب ليت الشباب البدل
جلال ولكنه تحاماه حور المقل

وهذا هو الشعر ، فما أعذب لفظه ، وأصفى قوله ! ويقول فى ذلك أيضا أبو دلف العجلى

نظرت إلى بعين من لم يعدل لما تمكن طرفها من مقتلى
لما تبسم بالمشيب مفارقى صدت صدود مفارق متحمل
فجعلت أطلب وصلها بتعطف والشيب يغمزها بأن لاتفعلى

والامام فخر الدين الرازى له شعر كثير منه :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى غفلة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فزالوا والجبال جبال

وهذا الشعر يتضمن حقائق صحيحة ، ولكن أى شيء يملك إعجابك ، ويثير عاطفتك ، ويغذى وجدانك ، وقد عدم منه الخيال ، وصبغ بصبغة الزهد والفلسفة ؟

ومن بديع قوله أمية بن أبى الصلت فى البراغيث :

وليلة دائمة الغسوق بعيدة الممسى من الشروق
كليلة المتيم المشوق أطال فى ظلمائها تشريقى
أحب خلق لأذى مخلوق يرى دمى أشهى من الرحيق
يغب فيه غير مستفيق لا يترك الصبوح للغبوق
لو بت فوق قمة العيوق ما عاقه ذلك عن طروق
كعاشق أسرى الى معشوق أعلم من بقراط بالعروق
من أكحل منها وباسليق يفصدها بمبضع دقيق
من خطمه المذرب الذليق فصد الطبيب الحاذق الرقيق

فاذا كنت لاتعرف أن هـــذا الشعر ورد فى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، وإذا كنت لاتعرف أن قائله أمية ابن عبد العزيز بن أبى الصلت الطبيب الأندلسى ، ووقف أمامك صديق لك ينشده ، وسألك لمن هذا الشعر ؟ . أجبته من فورك ، لابد أن يكون قائله طبيبا ، وإلا فمن يذكر فى شعره بقراط ، والعروق ، والفصد ، والمبضع ، وغير ذلك ، إلا الطبيب ؟ لأن هذه لغته التى تمليها عليه مهنته

اقرأ مثلا وصف أبى الرماح الأسدى للبراغيث ، وكان قد سكن مصر :

تطاول بالفسطاط ليلى ولم أكن بحنو الغضى ليلى على يطول
يؤرقنى خدب صغار أذلة وان الذى يوقظنه لذليـــل
إذا ما قتلناهن أضعفن كثرة علينا ، ولا ينعى لهن قتيل
ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة وليس لبرغوث إلى ســـبيل ؟

فإنك تجد كلام شاعر لم يتعمق فى الوصف ، ولم يذكر شيئا من الأسماء العلمية الدقيقة .

* * *

وإنى أريد بهذه المناسبة أن أذكر أطباء اليوم أن طبيب الأمس كان فى الكثير الغالب يضيف إلى علمه بمسائل الطب ، علما غزيرا فى أشياء أخرى ، ولا سيما علوم الدين والفلسفة والحكمة ، ولهم فى هذه العلوم مؤلفات كثيرة فالإمام الرازى يتطبب

وله أكبر مؤلف فى تفسير القرءان ، والرئيس ابن سينا ألف فى المنطق والفقه واللغة والفلسفة ، فوق ماله من المؤلفات الطبية الباهرة ، وكان لأبى جعفر بن البذوخ المغربى اعتناء بعلم الحديث ، ولسيف الدين الآمدى كتاب أبكار الأفكار فى الأصول ، وكتاب غاية الأمل فى علم الجدل ، وكتاب منتهى السول فى علم الأصول ، ولرشيد الدين على بن حليفة ، عم ابن أبى أصيبعه كتاب الموجز المفيد فى علم الحساب وكتاب المساحة ، ولغير هؤلاء وأولئك ممن لا تقع تواليفهم تحت حصر ، ومع أن أسباب البراعة فى الطب لم تكن متوفرة لديهم كما هى متوفرة اليوم ، فقد كان لهم فيه شأن أى شأن . فعسى أن تكون لنا فيهم أسوة حسنة .

* * *

وأما النحاة فان لهم شعرا أيضا ، ومنهم قول ابن مالك ناظم الألفية فى النحو والصرف :

إلى ابن الخير عن ضرر خشينا فحسن الحزم رأيا أن دهينا
وهذا مذهب وعر مداه مواصل عزة قد حان صينا
إذا الملهوف ذا صدق عطاء تنل حسن المحامد ما حييتا

هذا الشعر تجده فى كتاب بغية الوعاة للسيوطى صفحة ٥٦ ، ولا أكذبك إذا قلت لك : إنى لم أفهم هذا الشعر ، ويجوز أن يكون فيه تصحيف استغلق معه المعنى وانبهم على ألا تحمل الألفاظ فوق ماتحتمل من المعانى .

ومن شعر النحاة أيضا قول محمد بن السرى البغدادى فى أم ولده ، وكان يحبها ، وأنفق عليها ماله ، وجفته بعد ذلك :

قايست بين جمالها وفعالها فاذا الملاحة بالخيانة لا تفى
والله لاكلمتها ، ولو انها كالشمس ، أوكالبدر ، أوكالمكتفى

وهذان البيتان لاتجد فيهما رائحة للجمال الشعرى ، مع أن الحال التى أوحت الى ابن السرى بالانشاد تخلق من غير الشاعر شاعرا ، وأى شىء يبعث الشاعرية أكثر من حب وضياع مال ، ثم هجران وجفوة ؟ اجتماع هذا يخلق نفسا ملتهبة ، وشعورا متقدا ، إذا سال على أسلة قلم ، حرك الصخر الأصم . وأغرب من هذا الشعر أن

يتغنى به مغنينا العظيم الشيخ يوسف المنيلاوى ، وملئت به أسطوانة للحاكى . والمكتفى الذى يضرب عالمنا به المثل فى شعره هو المكتفى الخليفة العباسى ، وكان من أجمل الناس .

ولأبى البركات كمال الدين الأنبارى النحوى :

إذا ذكرتك كاد الشوق يقتلنى وأرقتنى أحزان وأوجاع
وصار كلى قلوبا فيك دامية للسقم فيها وللآلام إسراع
فان نطقت فكلى فيك ألسنة وإن سمعت فكلى فيك أسماع

وهذا غزل لا أسر فيه ولا إبداع .

* * *

واللغويون ورواة القريض كالأصمعى ، وأبى عبيدة ، والخليل ، وخلف الأحمر ، لهم شعر أيضا تظهر عليه مسحة العلم إلا من شذ منهم كخلف ، فقد تأخر فى هذا المضمار إخوانه ، وتقدم هو ، ووصفه ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، بأنه كان شاعرا كثير الشعر جيده ، ولم يكن فى نظرائه من أهل العلم اكثر شعرا منه ، ونقل السيوطى عن كتاب طبقات النحويين لأبى بكر الزبيدى قال : قال أبو على التالى : كان خلف الأحمر يقول القصائد الغر ، ويدخلها فى دواوين الشعراء . أقول : فدس شعرا على الشنقرى ، وعبد القيس ، والنابغة ، وغيرهم ، وبلغ به التصرف فى فنون الشعر إلى حد أنه كان كل شعر يقوله ، يشبه شعر من ينحله إياه ، حتى لم يستطع النقاد أن يميزوا الموضوع من غيره ، إلا أنه نسك فى آخر أيامه ، وخرج إلى أهل الكوفة ، وأطلعهم على ما نحله الشعراء ، ودسه عليهم . فأين من كانت منزلته فى الدرجة التى ترجم له فيها المتقدمون فى كتب طبقات الشعراء ، من الخليل والأصمعى وأبى عبيدة ، حيث لم نجدهما إلا رواة ونقدة وذوى بصر بالجيد من الشعر . وشأنهم فى ذلك شأن الصيرفى الماهر فى تمييز الزائف من الجيد ولكنه لا يملك من الجيد شيئا . فمن ذلك مثلا ما رواه ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء للخليل .

إن الخليط تصدع فطر بذائك أوقع
لولا جوار حسان حور المدامع أربع
أم البنين واسما ثم الرباب وبوزع
لقلت للقلب ارحل إذا بذالك أودع

ووصفه بعد أن ذكره ، بأنه بين التكلف ، ردىء الصنعة ، والخليل بن أحمد هذا هو أستاذ سيبويه ، الأصمعى والنضر بن شميل ، وقال عنه السيرافى : إنه أول من استخرج العروض ، وحصر أشعار العرب ، وكانت له معرفة بالإيقاع ، ومع ذلك ينشد مثل هذا الشعر .

ومن شعر الأصمعى ، وهو إمام فى اللغة والغريب والملح والأخبار والنوادر ، وكان كما قال عمر بن شبة : يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة — قوله فى جعفر البرمكى .

إذا قيل من للندى والعلا من النـــاس قيل : الفتى جعفر
وما إن مدحت فتى قبله ولكن بنى جعفر جوهر

بربكم : أهذا شعر عالم يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة ، رحم الله شيخه عمرو بن أبى العلاء ، فانه لم يقصد إلى مالا يقدر عليه ، ولم يغالب طبعه ، ولم يحاول أن يرغم نفسه أن تأتى بما لم تتهيأ له ، ألا ترى أن هذا الذى يخبرنا أبو عبيدة أنه كان أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب والشعر ، وأن دفاتره كانت ملء بيته إلى السقف ، لم يرووا له شعرا إن صحت الرواية غير بيت واحد هو قوله :

وأنكرتنى وما كان الذى نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلع

وأبو عبيدة الذى كان أعلم أهل زمانه بالأنساب وأيام العرب بشـــهادة الجاحظ — يقول عنه السيوطى فى بغية الوعاة : وكان يقول شـــعرا ضعيفا ، وأصلح ماروى له قوله :

يكلمنى ويخلج حاجبيه لأحسب عنده علما دفينا
وما يدرى قبيلا من دبير إذا قسم الذى يدرى الظنونا

وذلك هو أبو بكر بن دريد ، الذى رووا عنه أنه أشعر علماء الأدب الى زمانه وأنه كان أنفذهم بصرا فى فنونه ، وأقدرهم على الابانة بين غثه وسمينه . ومن رجع الى كتب المتقدمين من نقدة الأدب ، ورواة الشعر ، يجدهم بلا استثناء يرجعون إلى ابن دريد ، ويضعون رأيه فى اللغة والادب أمام رأى غيره ، ومع ذلك : فان له شعرا لا يصح بحال أن تضعه فى احدى كفتى ميزان ، وعديله شعر كثير ممن هم دونه علما باللغة والأدب ، فهو لا يجرى مع شاعر ما فى عنان واحد ، اقرأ قول الامام ضياء الدين الموصلى فى كتابه المثل السائر صفحة ١٦٧ :

« هذا ابن دريد ، قد قيل : إنه أشعر علماء الأدب ، وإذا نظرت الى شعره ، وجدته بالنسبة إلى شعر الشعراء المجيدين منحطا ، مع أن أولئك الشعراء ، لم يعرفوا من علم الأدب عشر معشار ما علمه » . اهـ .

من ذلك تعلم أنه ليس كل من عقد وزنا بقافية ، قد قال شعرا ، لأن الشعر شىء آخر تطلبه وراء الوزن ، ووراء القافية ، وإلا كان ما ينظمونه من متون العلم والفنون كألفية ابن مالك فى النحو شعرا .

مايتساوى من الكلام على الآذان مصنوعه وساذجه

وإنما الشعر كالدراهم ، لا يجوز عند النقاد زايفه

قال الفضل بن الربيع : إن من بيوت الشعر أبياتا ملس المتون ، قليلة العيون ، إن سمعتها لم تفكك إليها ، وان فقدتها لم تبالها . ولقد صدق الفضل فى ذلك ، فأى شعر موزون ترى فى قول أبى الأهتم

معاوية النقى الـ ـرى أمير المؤمنينا

أعطى ابن جعفر مالا فقضى عنه الديونا

هذا ليس شعرا لا بالوزن ولا بالمعنى وانما أجاز زياد قائله ، لأنه هزل فأجاد الهزل .

وأعلم أن الناس يختلفون فى تقدير الشعر اختلافا كثيرا أو قليلا بالنسبة الى ماطبعهم الله عليه من ذوق صحيح أو مريض ، وحس صاف أو كدر ، وميل نفسى .

وإنما مثل الشعر أمام تقدير الناس مثل ألوان الطعام ، هذا يشتهى ذلك اللون ويحبه ، ويتمنى أن لو ملأ منه بطنه كل يوم ، وذلك يبغضه ، ويكره أن ينظر اليه ، فضلا عن أن يأكله ، ولهذا تراهم يختلفون ، فيقول أحدهم : فلان الشاعر أشعر الناس ، ويرى آخر أن غيره أشعر منه ، بل تجد الرجل الواحد يسمع شعرا ، فيقع من نفسه موقعا حسنا ، فيقول : ان صاحبه أشعر الناس ، ويسمع شعر شاعر آخر فيطمئن اليه . فيرى أن صاحب هذا أشعر الناس . وهكذا .

رووا ان القبي انشد مروان بن أبي حفصة لزهير . فقال : هذا أشعر الناس . ثم انشده للأعشى . فقال : بل هذا اشعر الناس . ثم انشده لامرىء القيس . فكأنما سمع به غناء على شراب . فقال : امرؤ القيس والله أشعر الناس . فمروان بن ابي حفصة . وهو شاعر لا يثبت فى ذلك على رأى . فما ظنك بغيره ؟

مما تقدم تعلم أن للذوق . وضبط النفس . وحالة السمع ومقدرة المنشد — دخلا كبيرا فى الحكم على الشعر . فإن هذا قد يستهجنه فلان ويستبرده . فى حين أن غيره يستجمله ويستحسنه . واذهب الى أبعد من هذا . فقد تستحسن اليوم ما تستهجنه غدا . وقد تستهجن اليوم ما تستحسنه غدا . فتأمل .

محمد أحمد برانق
المدرس بالكلية الحربية